المحاضرة الرابعة: المدراس الاقتصادية(التجاريون والطبيعيون)

1- المدرسة التجارية:

يطلق مصطلح التجاريين على المجموعة التي ساهمت في وضع السياسة الاقتصادية التي سادت في عصر الرأسمالية التجارية في بلدان أوروبا الغربية بداية من القرن السادس عشر وإلى غاية الربع الثالث من القرن الثامن عشر، أي في فترة من عام(1500 إلى 1775)، وتجدر الإشارة هنا أن النظام الرأسمالي في أول عهده كان ذا صبغة تجارية و من هنا كانت تسمى المرحلة الأولى لهذا النظام بالرأسمالية التجارية. وقد تمركزت في فرنسا وانجلترا وأسبانيا.

هذا النظام الجديد، هو نظام كان يتناسب مع طبيعة الحياة الجديدة في "أوروبا"، في تلك الفترة وتطورها، ومفهوم الحياة الاقتصادية والاجتماعية، والعلاقات الجديدة التي كانت مبنية على المصالح المادية.

كان في تلك الفترة قد بدأ الوسط الاقتصادي والاجتماعي، في التحول نحو مرحلة جديدة يسودها الاهتمام بالعلوم الطبيعية والإنسانية، والبعد عن العلوم الدينية كتفسير للظواهر الاقتصادية، لذا أدى هذا التغير في الاتجاه، إلى تغير في الهيكل الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات في أوربا، وظهور نزعة جديدة، نزعة فردية، ومع مرور الزمن أخذت تتكون قوى اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية، عملت على نقل تلك المجتمعات من مجتمع العصور الوسطى إلى مجتمع العصر الحديث، وأصبحت التجارة وتحديدا التجارة الخارجية، سواء عن طريق البر أو البحر أكثر أمنا، وكانت هناك وسائل للنقل تتقدم، وكثر المشتغلون بالتجارة وزاد رخاؤهم، وبدأت الأسواق تنمو وتلعب دورا حيويا في حياة المجتمع.

عوامل ظهور الفكر التجاري:

لقد كان لظهور الدولة القومية الحديثة وانهيار النظام الاقطاعي مع نهاية القرن الخامس عشر؛ الأثر الكبير في بلورة الفكر التجاري، فقد كان اهتمام التجاريين دائما منصبا حول كيفية تحقيق قوة الدولة وثرائها. وإجمالا يمكن القول إن أهم العوامل التي أدت إلى ظهور الفكر التجاري تتمثل فيما يلي:

- **انهيار النظام الإقطاعي** :حيث أن هروب رقيق الأرض من القطاعيات نحو المدن (حيث يتركز التجار والصناع)، ساهم في زوال هذا النظام باعتبار رقيق الأرض هم أساس النظام الاقطاعي.
- **ظهور الدولة القومية الحديثة** :أخذت الدولة بمعناها الحديث في التكوين والظهور، وكان ظهورها يقتضي زوال النظام القطاعي من خلال القيام بحركة تركيز تضم كل القطاعيات وتصبح أجزاء من دولة واحدة وتزول معها سيطرة أمراء القطاع، بالإضافة إلى ضرورة الحد من سلطة وهيمنة الكنيسة التي كانت تعتبر نفسها صاحبة السلطة الدينية العالمية والتي كانت تعلو على السلطات الملكية. وقد ظهر تنظيم الدولة القومية بداية في كل من إنجلترا، البرتغال، إسبانيا، فرنسا، السويد وهولندا، ثم بقية الدول الأوروبية تباعا، فاستبدلت سلطة الأفراد القطاعية بسلطة الملوك القوميين.

- **قيام حركة النهضة الأوروبية** :حيث شهدت أوروبا في هذه المرحلة تطورات علمية وفكرية وفلسفية، وكذلك ثورات دينية إصلاحية ضد رجال الكنسية، وقامت بإحياء الفلسفة القديمة (اليونانية والرومانية) ودراستها بعيدا عن الميادين الدينية وبشكل يخدم مصالح الدولة القومية.
- **حركة الكشوفات الجغرافية** :حيث أدت الكشوفات الجغرافية الهامة مثل اكتشاف الطريق البحري رأس الرجاء الصالح واكتشاف القارة الأمريكية سنة 1493م، إلى تطور التجارة بين أوروبا والعالم الجديد ودول الشرق الأقصى، من خلال الوصول إلى أسواق جديدة، ومصادر جديدة لتدفق الذهب والفضة نحو أوروبا.
- **تزايد تدفق المعادن النفيسة** :تزايد تدفق الذهب والفضة إلى أوروبا، لاسيما اسبانيا والبرتغال اللتان اكتشفتا القارة الأمريكية، وانجلترا وفرنسا وإيطاليا التي كانت أكثر تقدما من بقية الدول ومن ثم زاد الطلب على منتجاتها، وهو ما أدى إلى زيادة ثراء طبقة التجار وزيادة نشاطهم التجاري والمالي. كما أصبح المعدن الثمين والذهب تحديدا، هو الشكل الوحيد للثروة وسبب قوة الدولة، وهي أهم أسس الفكر التجاري. وتجدر الاشارة إلى أن التدفق الكبير للمعادن النفسية أدى إلى ارتفاع حاد في الأسعار خلال القرن السادس عشر.
- **ازدهار التجارة** :تميزت هذه الفترة باحتلال التجارة المكان الأول في التفكير الاقتصادي (خاصة بعد اكتشاف طرق مواصلات بحرية جديدة، وتدفق المعادن النفيسة، رغم أن معظم الدول الأوروبية كانت تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، لكن الاهتمام بالتجارة ظهر باعتبارها النشاط الاقتصادي الوحيد القادر على إثراء الدولة. واقتضى نمو التجارة الاهتمام بالصناعة فكانت الصناعة في خدمة التجارة، وسميت هذه الفترة بالرأسمالية التجارية.
- **تطور النظام النقدي** :أدى ازدهار التجارة في أوروبا، إلى تزايد أهمية النقود (النقود من الذهب والفضة) في المبادلات وتكوين رؤوس الأموال، وسيادة اعتقاد راسخ عن كيفية زيادتها واعتبار التجارة الطريق الأسرع لتكوينها من أجل إثراء الدولة، كما أدى نمو التجارة أدى إلى ظهور أساليب جديدة في التعامل كالأوراق التجارية.

مع مختلف التطورات السابقة كان من الضروري أن يتطور الفكر الاقتصادي بدوره لكي يتلاءم مع متطلبات المرحلة الجديدة، وكانت الحاجة إلى أفكار اقتصادية جديدة توفق بين مصلحة الدولة الناشئة بما تحتاج إليه من قوة، ومصلحة الطبقة الجديدة وهي طبقة التجار، فتهيأت بذلك شروط تكوين المذهب التجاري أو المدرسة التجارية.

أهم الافكار الاقتصادية للمدرسة التجارية:

من أهم الافكار التي يؤمن بها اصحاب المدرسة التجارية هو الاتي:

- يجب ان تكون الدولة قوية، ويجب ان تكون غاية النظام الاقتصادي هي تحقيق هذه القوة، ولذلك سميت نظريتهم بنظرية الاقتصاد للقوة.
- الثروة هي اهم ما تحقق قوة الدولة، ولذلك يجب ان تسعى الدولة لتنمية ثروتها، والثروة هنا هي الذهب والفضة وبقية المعادن النفيسة.

- نظر التجاريون الى الثروة الكلية في العالم على انها ثابتة الحجم، وترتب على فكرتهم هذه أن اعتبروا ان ما تكسبه دولة من الدولة من هذه الثروة انما يكون عن طريق ما تفقده دولة أخرى منها ... ولهذا كان الطابع الذي يميز هذه المدرسة هو الطابع العدائي، لأن كل دولة تسعى الى تحقيق مصالحها على حساب مصالح الدول الاخرى وبغض النظر عما يجري لاقتصاديات الدول الاخرى.
- أن السبب في ارتفاع الاسعار في عهد التجاريين انما يرجع لزيادة كمية النقود التي دخلت للدول الأوربية على إثر زيادة دخول الذهب والفضة اليها من العالم الجديد، والتي من مقتضاها أيضا أن تغيرات مستوى الأسعار تتوقف على تغيرات كمية النقود.

الانتقادات الموجهة للمدرسة التجارية: في سعيه للحصول على الثروة، أفرز التيار التجاري العديد من الأفكار والمفاهيم الخاطئة والتي أثبتت قصورها فيما بعد، ومن بين الانتقادات التي وجهت للمدرسة التجارية ما يلي:

- أخطأ التجاريون في تحديد مفهوم الثروة، فثروة البلد ليست هي الذهب والفضة وإنما تتمثل في المقدرة الانتاجية المحققة فعلا.
- تكوين الفائض في الميزان التجاري والمحافظة عليه بصفة مستمرة لا يمكن أن يؤدي إلى زيادة القدرة على تنميته، بل على العكس يؤدي إلى تدهوره، فزيادة كمية المعادن النفيسة داخل الاقتصاد زيادة كبيرة نتيجة الصرار على تكوين فائض مستمر في الميزان التجاري، يعمل على رفع مستويات الأسعار في النهاية، وهذا في حد ذاته يضعف من القدرة على التصدير ومن ثم يؤدي إلى تدهور الفائض بدلا من زيادته.
- التركيز على رفاهية الدولة على حساب رفاهية الفرد.
- إهمال الزراعة والتجارة الداخلية والتضحية بطبقة المزارعين في سبيل خدمة التجارة.
- اعتبر آدم سميث أن السياسة التجارية ساذجة لا تقوم بتحليل الأوضاع الاقتصادية تحليلا معمقا وتكتفي بإعطاء القواعد التي كان بعضها منافيا للمنطق.
- تقوية النزعة الاستعمارية لاستعمال موارد الشعوب المستعمرة خاصة مناجم الذهب والفضة.

2- المدرسة الطبيعية:

الفكر الاقتصادي الطبيعي هو فكر ظهر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بفرنسا تحديدا،على اثر الانتاج الوفير و التحول الفكر الانتاجي نحو التحول من الرأسمالية التجارية الى الرأسمالية الصناعية، مما أدى الى المطالبة بعدم تدخل الدولة في القطاع الاقتصادي والسير وفق مبدأ الحرية الاقتصادية.فظهر هناك فكر يؤمن بأن المجتمع البشري تحكمه قوانين طبيعية، حيث أن المصدر الأساسي و الوحيد للثروة هي الطبيعة، حيث أن النشاط الاقتصادي هو استغلال للموارد الطبيعية لا أكثر، بما يعبر على أن الأرض او الزراعة هي النشاط الرئيسي لخلق الثروة وهي النشاط الوحيد المنتج ،أما الصناعة والتجارة فهي نشاطات غير منتجة.

فاهتمام التجاريين بجمع المعدن النفيس عن طريق الرفع من حجم التجارة جعل المزارعين يتجهون نحوها مع انخفاض مستواهم المعيشي بانخفاض أسعار المنتجات الزراعية وقلة الطلب عليها.

مباديء المذهب الطبيعي:

- إن أهم ما ميز فكر الطبيعيين هو دعوتهم إلى ترك النشاط الاقتصادي حرا (المنع الكلي لتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وفي حرية الأفراد)،وتطورت سياستهم في المقولة المشهورة " دعه يعمل دعه يمر" أي دع الأفراد يعملون بصورة تلقائية ودع الأمور تجري، وبناء على هذا فقد ذهب الطبيعيون إلى معارضة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي حتى يتوفر المناخ الملائم لممارسة الحرية الاقتصادية.
- **النظام الاقتصادي أساس الحرية الاقتصادية** : أساس النظام في المذهب الطبيعي هو الملكية الفردية، والحرية الاقتصادية، وشعار الطبيعيون (الفيزوقراطيون) هو: دعه يعمل دعه يمر .
- اعتقد الطبيعيون أن النظام الاقتصادي تحكمه قوانين طبيعية كالتي تحكم باقي العلوم الدقيقة الفيزياء مثلا لذا وجب على الاقتصادي اكتشافها وترسيخها، حيث أن تدخل الإنسان في هذا النظام من خلال سنه لقوانين وضعية سيفقده توازنه وبالتالي تحدث الأزمات.
- عدم تدخل الدولة في الاقتصاد يعتبر من الدعائم الأساسية عند الطبيعيين ويقتصر دور الدولة في تسيير الشؤون العامة.
- **الأرض هي مصدر الثروة:** العمل الزراعي هو العمل المنتج الوحيد، والزراعة هي التي تعطي ناتجا صافيا، وإن الصناعة والتجارة هما عبارة عن أعمال خدمية غير منتجة. حيث أن الزراعة هي النشاط الوحيد الذي يمنح الإنسان أكثر إنتاج من الصناعة والتجارة، والريع الصافي هو الفرق بين ما ينفق للحصول على سلعة ما في الميدان الزارعي وبين ما تنتجه الأرض أي ما تمنحه من خيرات للإنسان ويؤدي تضافر جهود الإنسان مع عمل الطبيعة إلى نشوء قيمة جديدة وهي الناتج الصافي.
- **الجدول الاقتصادي أو توزيع الدخل:** إن نظرية التوزيع هي من أشهر النظريات التي قدمها الطبيعيون في دراساتهم الاقتصادية وركزوا من خلالها على دراسة الاقتصاد وفق نظرية شمولية تدرس الدخل على المستوى الوطني وليس وفق نظرية جزئية ترتكز على دخل الفرد كوحدة للتحليل.

انطلاقا من الريع الصافي وتقسيم المجتمع إلى طبقة عقيمة وأخرى منتجة يتبين انتقال الثروة إلى الطبقة المنتجة الزارعية لتعود إلى نفس الطبقة التي انطلقت منها وهكذا قسم الفيزيوقراطيون المجتمع إلى ثلاث طبقات:

- الطبقة المنتجة: وتشمل العمال الزارعيين الذين يقومون بخدمة الأرض ويخلقون الناتج الصافي.
- طبقة الملاك العقاريين: هؤلاء احتلوا مكانة وسطا بين الطبقة المنتجة والطبقة العقيمة.
- الطبقة العقيمة: وتشمل الحرف الأخرى غير الزارعية.

إسهامات الطبيعيون في الفكر الاقتصادي:

تأثر الفكر الاقتصادي بأفكار الطبيعيين فرغم أن فكرة الإنتاج الصافي لاتهم الزراعة وحدها وإنما بقية القطاعات إلا أن هذا الفكر لازم بعض المفكرين بصفة مباشرة أو غير مباشرة مثل آدم سميث رغم انتقاده للطبيعيين، قد

ميز بين الأعمال المنتجة والأعمال غير المنتجة وهذا من أثر الطبيعيين وهو التميز بين العمل المنتج والعمل الغير منتج. كذلك الشأن بالنسبة لماركس الذي قام بنفس التمييز.

قدم الطبيعيون مساهمات كثيرة تعتبر خطوات مهمة في تطور الفكر الاقتصادي، وفتحت الأبواب لبلورة علم الاقتصاد؛ ليكون علما مستقلا، لذلك اعتبروه علما اجتماعيا، كما أنهم أشاعوا فكرة الحرية الاقتصادية والمذهب الاقتصادي الحر، وبذلك فإن الطبيعيون يمثلون أول مدرسة للاقتصاديين.

- الطبيعيون جعلوا الاقتصاد والاقتصاد السياسي علما مستقلا بين العلوم.
- الطبيعيون يرون أن الثروة الحقيقة لبلد ما، أو لاقتصاد ما تتمثل في الإنتاج، وهذه هي الثروة، أو الإنتاج هو الثروة الحقيقية لدى الاقتصاد.
- هم أول من أعطى صورة عن الدورة الاقتصادية أي دورة الناتج داخل البلد، وتوزيعه بين الطبقات الاجتماعية المختلفة.
- عملوا على تشجيع الصناعة، وذلك من خلال تأييد حرية التجارة.